فليت شعري ما عساهُ كان قال ابن جبير لو رأى حجـارة بعلبك او عاين هيكلها العجيب الَّا انَّ مسيرهُ لم يؤدِّ بهِ الى تلك المدينة (١

٢

سوريَّة وابن جُبير

رأيتَ في الفصل السابق الطريقة التي توخَّاها ابن جبير في تسطير رحلتهِ وما ضمَّنها من الفوائد . فبقي علينـا ان نرافقهُ في سياحتهِ في بلاد الشام فنلتقط بصحبتهِ بعض المعلومات عن سوريَّة في مختتم القرن الثاني عشر ولا غرو فانَّ دليلنا فكهُ النفس متوقد الذهن فيبهج رفقتهُ ويفيدهم معًا

بعد ان اجتاز ابن جبير بلاد الجزيرة قطع الفرات فكان اوَّل ما لقيهُ في وجههِ من بلاد الشام منبج . فاحسَّ السائح بجواد قلمهِ يُركض فاسترسل في وصفها بالسجع كمألوف عادتهِ (ص ٢٤٨) ولم يذكر من خواصها الَّا النزر القليـل ممَّا لا يُشفى بهِ العليل ولا يُروى الغليل . ثم سار من منبج الى حلب فوصفها وصفًا طويلًا روينا شيئاً من الفاظهِ المبهرجة . وألحق هذا الوصف باشتقاق اسم حلب فقال (ص ٢٥١) :

« كانت قديمًا في الزمان الاوَّل ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل بغُنَيمات لهُ فيحلبها هنالك ويتصدَّق بلبنها فلذلك سُمِّيت حلب والله اعلم »

وهـذا الاشتقاق في الغرابة بمكان ذكرهُ ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٣٠٤) مرتابًا في صحَّتهِ وقد زاد عليهِ ابن بطوطة ما هو اغرب فجعـل بدلًا من الغنم بقرةً شهباء قال : فكان اذا حلبها ابراهيم قيل « حلبَ ابراهيمُ الشهباء » . وليس في كل هذه الاشتقاقات كما ترى ذرَّةٌ من الصحَّة وانَّما هي مشابهات لفظيَّة لا طائل تحتها . ومثلها اشارة ابن جبير الى اشتقاق اسم حماة من حَمَى يحمي (ص ٢٥٥)

---

١) ذكر ابن جبير بعلبك (ص ٢٥٨) مرَّة واحدة دون وصفهـا وألحق بذكرها قولهُ « اعادها الله » كانهُ ظنَّ انها في ايدي العدوّ . وهو وهمٌ ظاهر لانّ بعلبك لم تحصل قطّ في حوزة الفرنج

ومن ملحوظـات ابن جُبير في مسيرهِ من حلب الى دمشق (ص ٢٥٤) انَّ « خانات هذا الطريق كأنَّها القلاع امتناعاً وحصانةً وابوابها حديد وهي من الوثاقة في الغاية » وكفى بهذا دليلاً ناطقاً على احوال بلاد الشام في عهدهِ . وقد كرَّر الرحَّالة مثل هذا القول غير مرَّة اطلب مثلاً قولهُ في خان السلطان (ص ٢٥٩)

ثم يذكر ابن جبير في طريقهِ من حلب الى حماة « جبل لبنان » على حسب عادة الاقدمين الذين كانوا يطلقون هذا الاسم ليس فقط على لبنان الحالي بل ايضاً على جبال النصيريَّة الواقعة في شمالهِ (١ وجعـل في سفح هذا الجبل (ص ٢٥٥) « الملاحدة الاسماعيليَّة » وذكر شيئاً من بدعتهم . امَّا لبنان الحالي فقـد عرَّفهُ ابن جبير بما حرفهُ (ص ٢٨٧):

« وهذا الجبل من اخصب بلاد الدنيا فيهِ انواع الفواكه وفيهِ المياه المطَّردة والظلال الوارفة »

واضاف الى قولهِ ما يؤيد قول المقدسيّ في العبَّاد المنقطعين الى الله في لبنـان فقـال: « وقلَّ ما يخلو من التبتيل والزهادة »

ثم مرَّ ابن جبير في رَستن (ص ٢٥٧) فاشار الى آثارها العظيمة وتخريبهـا على يد عُمر بن الخطَّاب ثم قال: « ويذكر القسطنطينيُّون انَّ بها اموالاً مكنوزة والله اعلم » وقولهُ هذا صدىً لمزاعم العامَّـة في كل زمان عن المطالب والدفائن المكنوزة في الاخربة القديمة وهو شائع في انحاء سوريَّة الى عهدنا هـذا وربَّما صدَّقهُ الجهَّال فاخربوا بسببهِ عدَّة آثار جليلة حطَّموها طمعاً في ما تحتها من الكنوز المرصودة على زعمهم

وممَّا اثنى عليهِ في حمص محاسن بساتينها وطيب هوائها وذكر قبر خالد بن الوليد ثم قبر ابنهِ عبد الرحمان الذي اشبه اباهُ بجليل اعمالهِ . واضاف اليهما قبر عبيد الله (٢ ابن عمر الذي قُتل في صفّين . ويؤخذ من قول ابن جبير انَّ جثَّة عبيـد الله نُقلت الى حمص بعد موتهِ . وكانت حمص على عهد ابن جُبير فقدت كثيرًا من محاسنهـا كما لحظ الكاتب حيث قال (ص ٢٥٨):

---

١) اطلب كتابنا تسريح الابصار (ج ٢: ٣-١٠)

٢) هي الرواية الصحيحة وليس كما روى الاستاذ سكياپارلي في ترجمتهِ الايطالية غير مرَّة « عبد الله » فانَّ عبد الله بن عُمر مات وقبر في مكَّة كما اتَّفق عليهِ كافة المؤرخين

« واسوار هذه المدينة في غاية الثاقة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصمّ السود وابوابُها ابواب حديد سامية الاشراف هائلة المنظر رائعة الاطلال والإنافة تكتنفها الابراج المشيَّدة الحصينة وأمَّا داخلها فما شئت من بادية شمّاء خلقة الارجاء ملفَّقة البناء. لا اشراق لآفاقها. ولا رونق لاسواقها. كاسدة لا عهد لها بنفاقها »

ثم واصل المسافر سيرهُ من حمص الى دمشق. وكانت الطريق بينهما قليلة العمران كما في أيامنا اللهمَّ الَّا ثلاث او اربع قرى التي احتلَّها كفارة التي لم يجد فيها غير النصارى (ص ٢٥٩) والنبك. وبعد اجتيازه في خان السلطان فثنيَّة العُقاب فقُصَير دخل الفيحاء فاطلق العنان لقلمهِ في وصفها. وقد اتَّسع في ذكر محاسنها واطنب ايَّ اطناب ولولا مبالغتهُ في السجع لقلنا انَّ كلامهُ من اوفى ما جاء في بيان صفاتها لا نستثني من ذلك الَّا بعض الكتب الخاصَّة التي وُضعت في فضائل دمشق. ودونك ما روى عن بعض ابنيتها قال (ص ٢٨٣):

« وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة. وبها مارستانان قديم وحديث والحديث احفلهما واكبرهما وجرايتهُ في اليوم نحو الخمسة عشر دينارًا ولهُ قَوَمة بايديهم الأزمَّة المحتوية على اسماء المرضى والنَّفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك والاطبَّاء يبكّرون اليهِ في كلّ يوم ويتفقَّدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم والمارستان الآخر على هذا الاسم لكنَّ الاحتفال في الجديد اكثر. وهذا القديم هو غربيّ الجامع المكرَّم. وللمجانين المعتقلين ايضًا ضربٌ من العلاج وهم في سلاسل موثقون نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر »

وفي كتاب زبدة كشف الممالك (ص ٦٥) ما يشبه هذا الوصف في مارستانات دمشق

ومما يجدر بنا ذكرهُ الميقاتة اي الساعة الدقَّاقة التي كانت على باب جيرون اثبت المشرق سابقًا (٣ : ٩٨٥) كلامهُ فيها وهي من عجائب ذلك الزمان

ولولا ضيق المكان لاثبتنا شيئًا مما ذكرهُ ابن جبير عن الجامع الكبير الذي اتَّسع في وصف ارخامهِ الملوَّنة وبلاطهِ المذهَّب المنقوش بالفصوص البديعة وكانت الفسيفساء تزين جدرانهُ الخارجة المتَّصلة بصحنهِ (ص ٢٦٨) فكانت اشعَّة الشمس تصيبها وتنعكس الى كل لون منها فيأخذ منظرهُ بالابصار

ومما يزيد بهِ انذهال القارئ وصفُ ابن جبير لمساجد اخرى عجيبة البنيان بديعة النقوش والارخام وجدها في قرى الغوطة فافاض في محاسنها

ثم تابع ابن جبير مسيرهُ من دمشق الى عكّة (ص ٢٩٨—٣١٠) مارًّا بدارَيّة ثم بانياس ثم وادي تبنين بين حصنَيْ هونين وتبنين حتى بلغ ساحل الشام . ووصفهُ لطريقهِ غاية في الظرافة والاعتبار يصوّر احوال ذلك الزمان تصويرًا بهيًّا ويمثّل للعيان ما كان يجري في انحاء الشام من الامور الخطيرة . وكان ابن جبير في صحبة قفل من التجّار يسيرون بامان في بلاد العدوّ لاتّفاق لطيف جرى بين الفريقين ترويجًا لسوق التجارة ولطفًا بالعباد (١ وهذا لعمري دليل على ترقي التمدّن في ذلك العهد وفيهِ عبرة لاهل زماننا الذين لم يتمكّنوا من صيانة حقوق التجارة في وقت الحرب رغمًا عمّا اقاموه من مؤتمرات السلم

ولابن جبير كلام حسن في وصف صور نثبتهُ هنا ليتمكّن القارئ من المقابلة بينهُ وبين وصف المقدسيّ (راجع الصفحة ٦٩٠) قال (ص ٣٠٤):

« امّا حصانتها ومنَعتها فاعجب ما يحدَّث بهِ وذلك انّها راجعة الى بابين احدهما في البرّ والآخر في البحر وهو يحيط بها الّا من جهة واحدة فالذي في البرّ يُفضَى اليهِ بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة كلّها في ستائر مشيدة محيطة بالباب . واما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدَين الى ميناء ليس في البلاد البحريّة اعجب وضعًا منهـا يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بهـا من الجانب الآخر جدار معقود بالجصّ فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها وتعترض بين البرجَين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الّا عنـد ازالتها وعلى ذلك حرّاس وأُمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الّا على اعينهم فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوقع . ولعكّة مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وانّما ترسي خارجها والمراكب الصغار تدخل اليها فالصوريّة اكبر واجمل واحفل »

وبقي ابن جبير في عكّة حتى اقلعت منها سفينة جنويّة عادت بهِ الى المغرب . وكان الركّاب ألفَين وليس هذا العدد مفرطًا ونحن نعلم انّ بعض السفن الحربيّة كانت تحمل ١٢٠٠ جنديّ ما عدا الخيل . ومنها ما كان يركبها الزوّار في عدد ١٥٠٠ (١ . وبين

---

١) ولابن جبير في هذا المكان عدّة تفاصيل وبيان عادات مألوفة نُحيل القرّاء الى مطالعتها لما تتضمّن من الفوائد لتعريف احوال ذلك الزمان

٢) اطلب ما جاء في هذا الصدد في كتابي مرشان وبرنس:
J. Marchand : *De Massiliensium cum Eois populis commercio*, p. 46 ; H. Prutz : *Kulturgesch. d. Kreuzzüge*, p. 105

القوانين التي وُضعت للبحريين في ذلك العهد انهُ لا يسوغ ان يُتجاوز هذا العدد الاخير (١ ومن المعلوم انَّ سفن ذلك الزمان كانت شراعيَّة لا يمكنها السفر الَّا في فصول محدودة وقد نبَّه ابن جبير الى هذا الامر بقولهِ (ص ٣١١):

« وفي مهبّ الريح بهذه الجهات سرّ عجيب وذلك انَّ الريح الشرقيَّة لا تهبُّ فيها الَّا في فصلي الربيع والخريف والسفر لا يكون الَّا فيهما والتجَّار لا ينزلون الى عكَّة بالبضائع الَّا في هذين الفصلين في السفر ونصف الفصل الربيعيّ من ابريل وفيهِ تتحرَّك الريح الشرقيَّة وتطول مدَّتها الى آخر شهر مايه واكثر واقل بحسب ما يقضي الله تعالى بهِ والسفر في الفصل الخريفيّ من نصف اكتوبر وفيهِ تتحرَّك الريح الشرقيَّة ومدَّتها اقصر من المدَّة الربيعيَّة وانما هي خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوماً وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيهِ تختلف والريح الغربية اكثرها دواماً فالمسافرون الى المغرب والى صقلّية والى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقيَّة في هذين الفصلين انتظار وعدٍ سابق فسبحان المبدع في حكمتهِ المعجز في قدرتهِ لا إله سواه »

وكانت حياة الركَّاب على تلك السفن الكبيرة ذات حركة وتقلُّبات كأنَّها المدن الصغرى تمثِّل كلّ اطوار المعيشة اليوميَّة . وممَّا اثبتهُ ابن جبير في رحلتهِ وصف عيد اقامهُ النصارى على ظهر السفينة بأبَّهة عظيمة ورونق عجيب قال (ص ٣١٣):

« وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب وهو اوَّل يوم من نونبر (كذا) العجميّ كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا لهُ في إسراج الشمع وكاد لا يخلو احد منهم صغيراً او كبيراً ذكراً او انثى من شمعة في يدهِ وتقدَّم قسّيسوهم للصلاة في المركب جمع ثمَّ قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم والمركب يزهر كلّهُ اعلاهُ واسفلهُ سرجاً متَّقدة وتمادينا على تلك الحالة اكثر تلك الليلة »

وكان المركب في تلك الاثناء ابتعد عن سواحل الشام واقترب من جزيرة صقلّية فلا حاجة ان نتعقَّب آثار سائحنا بعد ذلك وانَّما ندوّن هنا بعض الملحوظات العموميَّة التي تُستفاد من رحلة ابن جبير بخصوص الشام ومن اقوالهِ ما يفيد ويروّح الالباب معاً فمن ذلك انهُ يستعمل اسماء الشهور القمريَّة والروميَّة معاً كما رأيت في النصّ

---

١) اطلب كتاب شَوب في تاريخ تجارة الشعوب الرومانية مع سواحل البحر المتوسط
A. Schaube : *Handelsgesch. d. roman. Voelker d. Mittelmergebicht*, p. 202.

راجع ايضاً مقالتنا في تعريف هذا الكتاب (المشرق ٦ : ٦٢٢)

الاخير . ومنها ما لحظهُ في اهل الشام من المبالغة في اتخاذ الالقاب والتعظيم في السلام بما لا أثر لهُ اليوم قال (ص ٢٨٨) :

« ومخاطبة اهل هذه الجهات قاطبةً بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامثال الخدمة وتعظيم الحضرة واذا لقي احدٌ منهم آخر مسلّماً يقول جاء المملوك او الخادم برسم الخدمة كنايةً عن السلام فيتعاطون المحال تعاطياً والجِدُّ عندهم عنقاء مغرب وصفة سلامهم ايماء الركوع او السجود فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض وربّما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحطّ وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً وهذه الحالة في الانعطاف الركوعيّ في السلام كنّا عهدناه لقَيْنات النساء . . . فيا للعجب منهم اذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم لقد تساوت الاذناب عندهم والرؤوس ولم يميّز لديهم الرئيس والمرؤوس . . . »

وقد اثنى في محلّ آخر على احتفاء اهل الشام بالضيوف وحسن معاملتهم للغريب فقال (ص ٢٧٨) :

« فالغريب المحتاج هنا اذا كان على طريقة مصونٌ محفوظ غير مريق ماء الوجه وسائر الغرباء ممّن ليس على هذه الحال ممّن عهد الخدمة والمهنة يُسبَّب لهُ ايضاً اسباب غريبة من الخدمة اما بستان يكون ناطوراً فيهِ او حمّام يكون عيناً على خدمتهِ وحافظاً لاثواب داخليهِ او طاحونة يكون اميناً عليها او كفالة صبيان يزدجم الى محاضرهم ويصرفهم الى منازلهم الى غير ذلك من الوجوه الواسعة »

ومن ثم يدعو اهل وطنهِ ليأتوا بلاد الشام لينتجعوا خيراتها العميمة قال (٢٨٥) :

« فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ويتغرّب في طلب العلم فيجد الامور الميسّرات كثيرة . فاوّلها فراغ البال من امر المعيشة وهو اكبر الاعوان واهمّها فاذا كانت المعيشة فقد وُجد السبيل الى الاجتهاد ولا عذر للمقصّر الّا من يدين بالعجز والتسويف . . . فهذا المشرق بابهُ مفتوح لذلك فادخل ايّها المجتهد بسلام وتغنّم الفراغ والانفراد قبل علق الاهل والاولاد ويُقرع سنُّ الندم على زمن التضييع والله يوفّق ويرشد لا اله سواه . . . ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقيّة كلّها الّا مبادرة اهلها لاكرام الغرباء وايثار الفقراء ولاسيّما اهل باديتها فانك تجد من بِدارٍ الى برّ الضيف عجباً كفى بذلك شرفاً لها وربّما يعرض احدهم كسرتهُ على فقير فيتوقّف عن قبولها فيبكي الرجل ويقول : لو علم الله فيَّ خيراً لاكل الفقير طعامي . لهم في ذلك سرٌّ شريف »

وفي كل هذه الاقوال ما يدلّ على اعتبار ابن جبير لاهل الشام وارتياحهِ لسجاياهم الطيّبة

*

كفى بهذه الامثلة شاهدًا على اقتدار المؤلف وخواص كتابهِ وحسن نظرهِ بالامور وهذا ما حمل كثيرين على نقلهِ الى اللغات الاوربيَّة بتمامهِ او باقسام منهُ. ومن ذلك ترجمة كاملة ايطاليَّة نشرها في العام المنصرم العلَّامة سكيابارلي (١ وقد تصفَّحنا هذه الترجمة فوجدناها بالاجمال مضبوطة جامعة بين الامانة وحسن الذوق. وقد توصَّل المترجم الى ان يزيل اللُّبس والشبهات عن عدَّة مواضع كان مسخها النسَّاخ فتحقَّق روايتها الاصليَّة واخرج معناها الصحيح. بيد انَّنا كنَّا وددنا لو ذيَّل جناب الناقل ترجمتهُ بحواشٍ اوفر وملحوظات اوسع. وقد وقع مع ذلك في هذه الترجمة بعض اغلاط منها (ص ٢٥٠) انهُ لم يفرق بين الواقعة التي جرت في جوار حمص وقُصَير المجاورة لدمشق ومن ثم ليس «النهر الجاري امامها» نهر العاصي كما ظنّ. وقد كرَّر هذا الغلط في محل آخر (ص ٤٠٠) — وكذلك وهمَ (ص ٣٨٧) بزعمهِ انَّ باب الجابية في دمشق معناهُ باب الحَوْض. وانَّما دُعي بهذا الاسم لانهُ كان باب يؤدي الى الجابية وهي حاضرة بني غسَّان. الَّا انَّ هذه الاغلاط لا تمسُّ في شيء قَدْر هذه الترجمة التي تولَّى عملها. كما انهُ جمع في مقدَّمتهِ من الافادات في تعريف المؤلف ما لم يبلغهُ احد قبلهُ. هذا فضلًا عن الفهارس التي ألحقها بالكتاب. فنثني اذن الثناء الطيّب على الترجمة الايطاليَّة الحديثة التي قرَّبت منافع ذلك التأليف الذي يستحقُّ درسًا خصوصيًّا لكثرة مضامينهِ ولتأثيرهِ في الكتبة التابعين

هذا وكنَّا في وشك الانتهاء من كلامنا على ابن جبير اذ بلغتنا الطبعة الثانية من كتاب رحلتهِ التي تولَّاها ذلك المستشرق الهمام السيد دي غوي (de Goeje) صاحب المطبوعات الشرقيَّة المتعدّدة (٢ وحسبك باسمهِ دليلًا على مزايا هذه الطبعة التي تفوق

---

١) اسمها

Jbn Ġubayr : *Viaggio in Ispagna, Sicilia, Siria e Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto.* Roma, 1906, XXVII—412.

٢) هذا عنوانهُ:

E. J. W. GIBB MEMORIAL. vol. V. TRAVELS OF JBN JUBAIR. (Wright's Text). revised by **M. J. de Goeje**, *Leyden,* E. J. Brill, 1907. LIII—363

الطبعة الاولى مع ضبطها . ومن محاسن هذه الطبعة الجديدة انَّ جناب وليّ العمل اثبت الاصلاحات التي تركها الطابع الاوَّل المسيو رَيت واضاف اليها تنقيحات جديدة. وقد ابدى المسيو دي غوي اسفهُ على عدم حصولهِ على نسخة ثانية من الرحلة اشار اليها المسيو سكيابارلي وذكر وجودها في مراكش . والحقّ يقال ان هذه الرحلة لا يُعرف لها حتى الآن الَّا نسخة فريدة فلو امكنت مقابلتها على نسخة ثانية لاَستُطيع تحسينها وزيادة ضبطها وعلى كلّ حال نهنّي الدكتور دي غوي ونشكرهُ على هذه الخدمة الجديدة التي أَلحقها بخدمهِ السابقة للآداب العربيَّة لاسيما للآثار الجغرافيَّة جازاهُ الله الف خير ونفع بهِ اهل وطننا الذين يجدون في مطبوعاتهِ معلومات لا تحصى عن بلاد الشام في غابر الاعصار

فهرست

المذاكرات الجغرافية في الاقطار السوريَّة

	صفحة
تمهيد	٥
سوريَّة ومهد الجنس البشري	٧
موقع سوريَّة الجغرافي	١٠
السوريُّون حملة التمدُّن القديم	٢٣
السوريُّون دُعاة الدين	٢٦
كثرة التقاسيم الجغرافيَّة	٢٩
كتبة العرب وجغرافيَّة سوريَّة	٣٤
الجغرافيُّون العرب الاقدمون	٣٤
المقدسيّ وجغرافيَّة سوريَّة في القرن العاشر للميلاد	٤٠
المقدسيّ وتأليفهُ	٤٠
بلاد الشام على عهد المقدسي	٤٣
بلاد سوريَّة في القرن الثاني عشر وفقاً لرواية ابن جبير	٥٣
تعريف رحلة ابن جبير	٥٣
سوريَّة وابن جبير	٥٧